

ياسين عتنا | Yassine Atana*

مدخل إلى علم اجتماع المخيال: نحو فهم الحياة اليومية

Introduction à la sociologie de l'imaginaire

مدخل إلى علم اجتماع المخيال: نحو فهم الحياة اليومية.	عنوان الكتاب:
<i>Introduction à la sociologie de l'imaginaire</i>	العنوان الأصلي للكتاب:
فالتينا غراسي.	الكاتب:
محمد عبد النور وسعود المولى.	ترجمة:
المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات (سلسلة ترجمان)، الدوحة/ بيروت.	الناشر:
.2018	سنة النشر:
144 صفحة.	عدد الصفحات:

* باحث في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، يكمل دراساته العليا في معهد الدوحة للدراسات العليا.

Researcher in Sociology and graduate student at the Doha Institute for Graduate Studies.

مقدمة

أولاً: في رحاب علم اجتماع المخيال

1. المخيال

جاء الفصل الأول من الكتاب بعنوان «المخيال»، وفيه حاولت الباحثة أن ترسم المسار الفلسفي والأنثروبولوجي الذي أبدعه جيلبير دوران Gilbert Durand في مفهوم المخيال، مُوضحةً التاريخ الذي خاضه المفهوم منذ البدايات الأولى في التاريخ البشري، من الأسطورة إلى حدود المجتمعات المعاصرة التي غزتها التقنية والصناعة الرقمية، مركزةً على أنّ المخيال يحتوي دينامية داخلية، يمكن النظر إليها من زاويتين: الأولى، المجاز المرسل Metonymie الذي يفيد أن كل صورة هي جزء من بنية عميقة كلية، والثانية، الإرداف الخلفي Oxymora الذي يضم مبدأ وحدة الأضداد.

كما حاولت الباحثة تبيان الفروق الدلالية بين ثلاثة مفاهيم مركزية في هذا الحقل، هي: الصورة التي تحيل على الوحدة الصغرى للمخيال، والمؤسسة للمعنى الرابط بين الإنسان ومحيطه ثم التخيل، باعتباره العملية التي من خلالها يتم هذا التمثيل أو التمظهر الرمزي، والمخيال الذي يشير إلى ملكة أو قوة تسمح بتحويل الممثل إلى تمثيل. هكذا يكون المخيال هو النسق العام الذي يحتوي العنصرين السالفين. كما يُضيف دوران مُعطى رابعاً لهذه التحديدات، وسمه بـ «الترسيمة»، وهو يُعنى بالخطوة الوظيفية للتخيل التي تكون حلقة ربط بين عملية التفكير الواعية والتمثيلات التخيلية.

هذا كله في المرحلة الراهنة، أمّا تاريخياً، فقد تعرّض المخيال للتهميش والتحقير والإقصاء في الممارسة الفكرية (من خلال التيارات الفكرية

يعتبر مدخل المخيال في الدرس الاجتماعي من أهم المدخلات العلمية الراهنة، في فتح آفاق ومساحات فكرية تحليلية داخل الحقل السوسولوجي، من أجل فهم أوسع للظاهرة الاجتماعية في بعدها الرمزي. في هذا السياق، عمل المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات (سلسلة ترجمان)، على مدّ الباحث في العلوم الاجتماعية بمادة معرفية، من خلال كتاب للباحثة فالتينا غراسي⁽¹⁾، بعنوان مدخل إلى علم اجتماع المخيال: نحو فهم الحياة اليومية، ترجمة الدكتور محمد عبد النور⁽²⁾ والدكتور سعود المولى⁽³⁾.

تتمثل الأهمية المعرفية لهذا العمل في التعرض للمدخل المخيالي الذي يقترحه جيلبير دوران في دراسة الحياة اليومية للمجتمعات (المعتقدات، والعادات، والتمثيلات الاجتماعية، والممارسة اليومية... إلخ)، ونقد النظريات العلموية الوضعية التي نسجتها الحداثة؛ وذلك من خلال رد الاعتبار العلمي إلى التوجه الفهمي، والظاهرية الاجتماعية، وتوجيه البحث في علم الاجتماع الذي قدمه ميشيل مافيزولي Michel Maffesoli، كأيقونة نظرية في علم الاجتماع اليومي.

(1) أستاذة علم الاجتماع في جامعة بارثينوب (نابولي، إيطاليا)، وباحثة في مركز الدراسات حول الراهن واليومي في باريس.

(2) أستاذ علم الاجتماع بجامعة غرداية في الجزائر.

(3) أستاذ علم الاجتماع في معهد الدوحة للدراسات العليا، ومدير وحدة الترجمة في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

والفلسفية) أو الدينية (تحريم الصور)؛ إذ عُدَّ المخيال مجالاً للعقلانية واللاواقعية، ثانوياً في ترسيمات العقل على حد تعبير إيمانويل كانط Immanuel Kant. ويمكن ملامسة هذا الصراع ضد المخيال في دراسة تاريخ الصورة على وجه التحديد؛ حيث اعتبرت خارج الفكر ومن المحرمات الدينية.

إثر الغزو التكنولوجي للصورة، وإحداث نظريات فيزيائية جديدة (النظرية النسبية، ونظرية الكوانتم... إلخ)، وظهور حقول علمية جديدة في نطاق العلوم الاجتماعية (الإثنولوجيا، والأنثروبولوجيا، والنقد الأدبي... إلخ)، بدأت الصور تأخذ موقعا اجتماعيا، ونفسيا، وعلميا فكريا، داخل النسق الثقافي والمعرفي على حد سواء. وبناء عليه، بدأ المخيال يتمثل مادة زاهرة للفهم والتحليل، ومدخلا أساسيا لفهم الحياة الاجتماعية اليومية. وتجسدت هذه النقلة في الفكر السوسيولوجي الذي قدمه مافيزولي الذي يُقر بأن الحياة الاجتماعية مليئة بجملته من المعتقدات والصور المشتركة، أي وجود ذكاء تخيلي مجتمعي، يجب عدم الاستهانة به.

يتضح المستوى الاجتماعي والثقافي لهذا التحليل الأنثروبولوجي في الإضافة النوعية التي قدمها دوران من خلال نحتة لمفهوم «الموضوعة السوسيو - ثقافية». ويُقصد بهذا المفهوم الأماكن التي يتم فصل فيها المخيال الجمعي بصفته ذاكرة، ويقسم وفق ثلاثة مستويات متجهة نحو الأعلى: أولاً، المستوى المؤسس (الهو الاجتماعي). ثانياً، المستوى الفعلي (الأنا الاجتماعي). ثالثاً، المستوى العقلاني (الأنا الأعلى الاجتماعي).

كما بيّنا، تؤكد الباحثة أن دوران وإدغار موران Edgar Morin من أهم المؤسسين في السوسيولوجيا الحديثة لحقل المخيال، لكن لم تبلور بعد في علم الاجتماع المعاصر منهجية صريحة وصارمة في هذا الصدد، وإنما وجدت نظريات وتطبيقات في سياقات متعددة. وعليه، يُمكن القول إن علم اجتماع المخيال ليس تخصصاً محدد المعالم، وقائماً بذاته، بقدر ما هو وجهة نظر جديدة للبحث عن دلالات لفهم الواقع الاجتماعي. لكن في الفترة الأخيرة، بدأت تظهر معالم خط عريض له، بصفته تخصصاً، على يد السوسيولوجي مافيزولي حول تنظيم الحياة اليومية والاعتراف بالدور الذي تؤديه الصورة في الحياة الاجتماعية.

في هذا المستوى، يرى دوران أن الطرح العلمي للمخيال في القرن العشرين لم يكن مُركّزاً على نحو نسقي، منهجي؛ الأمر الذي فرض عليه أن يقلب منحى التاريخ وبراديجماته، سواء في العلوم الحقة أو الإنسانية؛ حيث أصبحت الصورة تؤدي دوراً منهجياً كبيراً. وفي هذا الصدد، قدم دوران نظرية ومنهجية في المخيال داخل حقل الآداب والأنثروبولوجيا؛ إذ أوضح كيف أنّ الأسطورة تعيد إعادة تشكيل نفسها وفق حوض دلالي خاص بها، بناءً على ستة مستويات أساسية: أولاً، تنشأ تيارات ضمن المحيط

2. علم الاجتماع الفهمي والظاهرانية الاجتماعية

يُعتبر التيار الفهمي من بين التيارات السوسولوجية في دراسة الحياة الاجتماعية، وخاصة مع كل من جورج زيميل Georg Simmel وماكس فيبر Max Weber. ويستقي هذا التيار جذوره الفكرية من الطرح الفلسفي الذي قدمه فيلهام دلتاي Wilhelm Dilthey في صناعته لمفهوم «تجربة المعيش»، التي تظهر داخل مجرى الحياة بوصفها حقيقة كلية؛ إذ يمكن عزلها بفضل وحدتها الوظيفية والغائية، كما أنها وحدة حيوية ضمن معنى موضوعي وذاتي في آن واحد. وهذا التيار أعطى الدرس السوسولوجي نفساً جديداً، بعد قتل الحدث والحركة الاجتماعيين من جانب الوضعية/ أو البنيوية، مع كل من أوغست كونت وإيميل دوركايم وكارل ماركس.

وفق هذه المقاربة التحليلية الفهمية، يرى زيميل أن المجتمع يوجد بفعل حقيقة دخول الأفراد في علاقة تبادلية تحقق الإدماج الاجتماعي، بفضل مصالح حسية أو فكرية، مؤقتة أو دائمة، واعية أو غير واعية، فاعلة سببياً أو محفزة غائياً، في مشهد يحتوي/ أو يشهد مصالح يجب أن تتحقق. هكذا تصبح مهمّة عالم الاجتماع استطلاع الممارسات السوسولوجية لهذه الأشكال والمضامين الاجتماعية المختلفة، أو بصيغة أخرى، البحث في الأفعال المتبادلة التي تنتج الحياة والوحدة الاجتماعيتين. وعلى توجه مواز، يُقرّ فيبر بأن الفهم هو الواقع الإجرائي القاعدي للعلوم الاجتماعية، وإضافة إلى هذا فإنّ كلّ معرفة للواقع الثقافي هي دائماً، محمولة بمنطلقات فردية (بمعنى أنها وجهات نظر)، على الخصوص فردية شخصية. بناءً على هذا التحديد، يتقاطع فيبر وزيميل في فكرة استحالة معرفة الواقع في

شموله، لكن من وجهات نظر خصوصية فقط، وهذا ما يفيد الخلاف السوسولوجي والميثودولوجي مع التصورات والأفكار البنيوية.

وفي ما يخص الظاهرانية الاجتماعية، فإنها تصرح بأن الحقيقة الاجتماعية تتشكل من العلاقات البينية للأفراد، بين الفاعلين الاجتماعيين الذين يمنحون سلوكياتهم المعنى. كما يشدد هذا التيار على الاهتمام بمعرفة الحس المشترك؛ إذ يُعتبر اللوحة الخلفية للحياة الاجتماعية التي يجب مساءلتها. كما أن الفينومولوجيا تهتم بدورها بالشيء في ذاته، لكن وفق معناه؛ أي المعنى الذي يتشكل وفق النشاط الواعي، وهكذا يكون إدراك تجربة الآخر في الحياة الاجتماعية على نحو عفوي أساس المعرفة الإنسانية والعلمية في آن واحد، انطلاقاً من التركيز على مناطق المعنى المحدد.

إن علم الاجتماع الفهمي هو الوسيط التحليلي الوحيد، والقادر على سبر التجربة اليومية وفهم مخيالها؛ لكونه المقاربة الوحيدة القادرة على تقديم إجابات متعددة للظاهرة الاجتماعية، متجاوزاً التفسير الأحادي للحياة الاجتماعية، وهذا ما يسمح له بأخذ أكثر من وضعية للإصغاء للظواهر.

3. سوسولوجيا الحياة اليومية

تُرى سوسولوجيا الحياة اليومية أنها لحظة مفصلية في الدرس السوسولوجي، وتجاوز نظري ومنهجي للتفسيرات الأحادية المغلقة، أو بصيغة أخرى التحليلات الوضعانية التي تحاول أن تجعل من المجتمع جملة من القوانين الاجتماعية الحتمية؛ إذ ينطلق هذا الحقل العلمي المُحدث من فرضية مؤداها أن القيم نسبية والسلوكات الاجتماعية متعددة، كما أنها تحتوي بعداً رمزياً وليس مادياً فقط. إنه حقل يسعى لفهم

ثانيًا: على أضواء أفكار المؤلف

إن المقاربة التي يقدمها هذا المرجع، تعبر عن التفكير الذي نسجه الفكر ما بعد الحداثي، الذي يناقض مبدأ الثنائيات والفكر الحداثي المتأسس على الوجود المتناغم والمنسجم، المتمثل في شكل الصورة واللغة كتمثالات ذهنية قاعدية، من دون الوقوف عند الواقع بتعددته، إضافةً إلى أن الزمان والمكان أصبحا عنصريين ثابتين ولا يمكن التفكير فيهما. فالحداثة في تصويرها لذاتها معرفيًا وممارسة، وأنها خارج المرجعيات التاريخية التقليدية، وكون المعرفة العلمية فيها وجودًا واعيًا متسقًا ومتناغمًا، تُكسب الإنسان الألوهية العقلانية الوضعية، فضلًا عن بُعد كل البعد عن الحس العاطفي والخيال.

كما أن هذا المتن يقدم أطروحة بديلة في المنهج، داخل الدرس السوسولوجي الذي هيمنت عليه الوضعية؛ فالمنهج في الفكر الحداثي يقوم على تغريب الحدث إثر سلبه حداثيته؛ بصيغة أخرى، قد يقوم بخلق حدث جديد، ربما لا يمتُّ بصلته إلى ما يجري في الواقع بصفته حدثًا مكونًا للظاهرة البحثية. أما النظرية، فهي مجموع القوانين العامة التي تحكم حركة التمثل في مسطحه التي تحيل على الحدث ولا تحايتها بالضرورة. بمعنى أن الصورة هي نسخة إرشادية/ أو نسخة موضوعية/ أو امتداد موضوعي للواقع الحسي المعيش. في هذا المقام المنهجي والنظري، نلمس تعقيب عنصر الزمان والمكان في المعرفة الحداثية، في حين أنهما مقومان أساسيان للفهم والتفسير والنقد والتفكيك. وعليه، فإن الموقع المعرفي، الذي تنطلق منه الحداثة، هو كونها وحدة موحدة مع الرأسمالية، ترتكز على الكونية والشمولية من جهة، والذات

الحياة الاجتماعية فهما أعمق، بالنسبة إلى الفاعلين الاجتماعيين، بتبني موقف المشاركة والفهم في العملية التحليلية، مع الإشارة إلى أن المعرفة متعددة وحركية ومتناقضة؛ الأمر الذي يحيل به الواقع الاجتماعي كما هو، وهذا ما يفيد أن الحقيقة المطلقة الواحدة غير موجودة، وإنما حقيقة ما؛ من دون صفة الإطلاقية.

إضافة إلى هذا، تقترح سوسولوجيا الحياة اليومية الاهتمام المكثف بالحس المشترك؛ لأنه المنتج الأول للواقع الاجتماعي ونظرنا إلى العالم. هذا الحس المشترك الذي يحمل في طياته مجموعًا من الصور الاجتماعية وذاكرة مخيالية غنية، وخطابًا أسطوريًا، يؤثت الحياة الاجتماعية. ولا يقتصر هذا الطرح على العلوم الروحية/ أو الاجتماعية، وإنما تجاوزها إلى العلوم الطبيعية؛ إذ لا ينظر إلى العلاقة بين الإنسان والطبيعة على أساس سيطرة الأول على الثانية، بل من زاوية الصداقة والتعايش المشترك.

نلاحظ أن هذا الفرع الاجتماعي الجديد انتصر إلى مجموعة من المواضيع التي كانت في خانة اللامفكر فيه في الدرس الكلاسيكي (الحداثي)، من قبيل قيمة الجسد والجانب الحسي في المشهد الاجتماعي، وكذا طقوس الحياة اليومية، إضافةً إلى رد الاعتبار للفاعلية الاجتماعية التي تنطوي عليها الجماعات الصغرى، من روابط جماعية عاطفية، وقوة خيالية رمزية. وعلى هذا الأساس تحاول سوسولوجيا الحياة اليومية، التي تنتمي إلى نسق ما بعد الحداثة، الإمساك بالطريقة التي تقدم بها الظواهر نفسها، مع تسليط الضوء على المظاهر غير الواقعية للمخيل الاجتماعي فيها، وهدم أشياء من قبيل وجود قوانين اجتماعية ثابتة وحقيقة سوسولوجية مطلقة.

استنادًا إلى الانتقادات التي شكلت المتن السالف، وتبيان أن الحداثة أزمة معرفية، استأنف العقل الإنساني التفكير في التفكير نحو مداخل جديدة تتداخل فيها أربعة أقطاب فاعلة، هي: موضوع البحث، والباحث، والواقع الاجتماعي كترام تاريخي، والكل الاجتماعي الآني. وهذا ما جعل الذات تصب اهتمامها حول الانعتاق من عقال الموضوعي ونسق الثنائيات، والعمل على فتح مداخل إبستمية كأفاق مُحدثة للتفكير وإنتاج المعرفة تعيد تعريف وصياغة العلاقة بين الذات والموضوع.

ختامًا، يوقفنا الربط التركيبي للمعاني الواقعية (الإدراك) بالبنية المفاهيمية النظرية عند الإشكال المحوري للنظرية المعرفية؛ من جهة أنها تركز في مسلماتها ودعامتها على المنطق النظري على نحو محض، من دون الرجوع إلى العمليات والديناميات الاجتماعية، وأنها قاصرة عن تقديم وجهة نظر أو فهم سوسولوجي للواقع الملموس واليومي، وفتح آفاق لوضع فرضيات احتياطية تسمح بالتجاوب مع المجتمع ومخيله، وتجاوز التعديل الجذري للنسق النظري. وبذلك، وجب على النظرية، باعتبارها نسقًا مفاهيميًا مجردًا، أن تتماشى والبراكسيس الاجتماعي؛ الأمر الذي يترتب عليه مفارقة بين الانسجام العقلي ومقاصد الواقع.

والموضوع في المقام الفوقي والوعي والمادة في المقام التحتي من جهة أخرى. وهذا ما يجعلها قائمة على التشكيل البرجوازي وأطواره اللاحقة للعالم، بهدف السيطرة عليه وتشكيله وفق شكل اجتماعي واقتصادي مُحدد، متخذًا فيه الحدث المعرفي زمنيًا خطيًا تصاعديًا، كما أن الانتساب إليه يفرض على الذات أن تحتوي ذائقة حسية رأسمالية رمزية قابلة للتداول السلعي التبادلي⁽⁴⁾.

تولّد هذا الصنف من النظرية من بنية عميقة للتفكير الحدائي، المتمثل في المقولات الكونية للفكر الإنساني، التي استثمرها التصور البرجوازي لشرعنة هيمنته على أقطاب المعمورة كافة، بزعم يؤكد فيه أن العالم وحدة موحدة، وأن العلم هو نتاج تجربة حضارية واحدة، تتجسد في الرجل الأوروبي الأبيض، مقابل إقصاء التعددية الحضارية والتاريخية والمنهجية، والتأكيد على أن العلم نسق مغلق، بعيد عن الآليات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. وعليه، يُقرّ التفكير النظري التقليدي بأن الظواهر المعقدة التي تجسد وضعية ما، والمفاهيم النسقية التي تدمج فيها، خارجة عن نطاقه⁽⁵⁾؛ لكونه فكرًا يفكر لذاته، مبدؤه الفردية المعزولة عن الصيرورة الواقعية⁽⁶⁾.

(4) ينظر: إسماعيل ناشف، «تأزيم الحداثة، ترسيم المعرفة»، في: العتبة في فتح الإبستيم، ط 2 (بيروت: دار الفارابي، 2014).

(5) ماكس هوركايمر، النظرية التقليدية والنظرية النقدية، ترجمة مصطفى الناوي، مراجعة مصطفى خياطي (الدار البيضاء: عيون المقالات، 1999)، ص 31.

(6) المرجع نفسه، ص 33.

References

- غراسي، فالنتينا. مدخل إلى علم اجتماع المخيال: نحو فهم الحياة اليومية. ترجمة محمد عبد النور وسعود المولى. سلسلة ترجمان. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2018.
- ناشف، إسماعيل. العتبة في فتح الإبستيم. ط 2. بيروت: دار الفارابي، 2014.
- هوركايمر، ماكس. النظرية التقليدية والنظرية النقدية. ترجمة مصطفى الناوي. مراجعة مصطفى خياطي. الدار البيضاء: عيون المقالات، 1999.

المراجع